فلما بلغ كعبا الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه وارجف به من كان في حاضره من عدوه فقالوا هو مقتول فلما لم يجد من شيء بدا قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ويذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل من جهينة كانت بينه وبينه معرفة فغدا به إلى رسول الله حين صلى الصبح فصلى معه ثم أشار له إلى رسول الله فقال هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه فذكر انه قام إلى رسول الله حين جلس إليه فوضع يده في يده وكان رسول الله لا يعرفه فقال يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به قال رسول الله نعم قال أنا يا رسول الله كعب بن زهير فوثب عليه رجل من الأنصار فقال يا رسول الله دعني وعدو الله اضرب عنقه فقال رسول الله دعه عنك فإنه قد جاءنا تائبا نازعا فغضب كعب على الأنصار لما صنع به صاحبهم ومدح المهاجرين دونهم إذ لم يتكلم فيه رجل منهم إلا بخير والقصيدة التي قالها كعب في ذلك وذكر انه أنشدها رسول الله في المسجد

بانت سعاد فقلبي اليوم مبتول متيم عندها لم يجز مكبول
وما سعاد غداة البين إذ برزت إلا أغن غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول
شحت بذي شبم من ماء محنية صاف بأبطح أضحى وهو مشمول
تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه من صوب غادية بيض يعاليل
وبلمها خلة لو أنها صدقت بوعدها أو لو أن النصح مقبول
لكنها خلة قد سيط من دمها فجع وولع وإخلاف وتبديل
فما تدوم على حال تكون بها كما تلون في أثوابها الغول
كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلا الأباطيل
فلا يغرنك ما منت وما وعدت إن الأماني والأحلام تضليل
أمست سعاد بأرض لا تبلغها إلا العتاق النجيبات المراسيل
ولا يبلغها إلا عذافرة فيها على الأين إرقال وتبغيل
من كل نضاخة الذفرى إذا عرقت عرضتها طامس الأعلام مجهول
ضخم مقلدها فعم مقيدها في خلقها عن بنات الفحل تفضيل
حرف أخوها ابوها من مهجنة وعمها خالها قوداء شمليل
كأن أوب ذراعيها وقد عرقت وقد تلفع بالقور العساقيل
أوب يدي فاقد شمطاء معولة قامت فجاوبها نكد مثاكيل
نواحة رخوة الضبعين ليس لها لما نعى بكرها الناعون معقول
تفري اللبان بكفيها ومدرعها مشقق عن تراقيها رعابيل
تمشي الغواة بجنبها وقولهم إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول
وقال كل صديق كنت آمله لا ألهينك إني عنك مشغول
فقلت خلوا طريقي لا أبالكم فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول
نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت في الأقاويل
لقد أقوم مقاما لو يقوم به يرمي ويسمع ما قد أسمع الفيل
لظل ترعد من خوف بوادره إن لم يكن من رسول الله تنويل
حتى وضعت يميني ما أنازعها في كف ذي نقمات قوله القيل
فلهو أخوف عندي إذ أكلمه وقيل إنك منسوب ومسؤول
من ضيغم بضراء الأرض مخدره في بطن عثر غيل دونه غيل
إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال انكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل
يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل
شم العرانين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سرابيل
بيض سوابغ قد شكت لها حلق كأنها حلق القفعاء مجدول
ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

لا يقع الطعن إلا في نحورهم ليس لهم عن حياض الموت تهليل
البسيط
ويروى أن كعبا لما أنشد رسول الله بيده إلى الخلق أي اسمعوا تعجبا بقوله
ومن مستجاد شعر كعب بن زهير قوله أيضا يمدح النبي
تحذي به الناقة الأدماء معتجرا بالبرد كالبدر جلى ليلة الظلم
وفي عطافيه أو أثناء بردته ما يعلم الله من دين ومن كرم
البسيط
ولما قال كعب في لاميته المتقدمة إذا عرد السود التنابيل يريد الأنصار وخص المهاجرين بمدحته دونهم غضبت عليه الأنصار فقال بعد أن أسلم يمدحهم ويذكر بلاءهم مع رسول الله وموضعهم من اليمن ويقال إن رسول الله حضه على ذلك وقال لما أنشده القصيدة المتقدمة لولا ذكرت الأنصار بخير فإن الأنصار لذلك أهل فقال كعب هذه الأبيات
من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب من صالح الأنصار
ورثوا المكارم كابرا عن كابر إن الخيار هم بنو الأخيار
المكرهين السمهري بأذرع كسوالف الهندي غير قصار
والناظرين بأعين محمرة كالجمر غير كليلة الإبصار
والبائعين نفوسهم لنبيهم للموت يوم تعانق وكرار
يتطهرون يرونه نسكا لهم بدماء من علقوا من الكفار
دربوا كما دربت ببطن خفية غلب الرقاب من الأسود ضواري
وإذا حللت ليمنعوك إليهم أصبحت عند معاقل الأغفار
ضربوا عليا يوم بدر ضربة دانت لوقعتها جميع نزار
لو يعلم الأقوام علمي كله فيهم لصدقني الذين أماري
قوم إذا خوت النجوم فإنهم للطارقين النازلين مقاري
في الغر من غسان في جرثومة أعيت محافرها على المحفار
الكامل
(الاكتفاء بما تضمنه مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ج 2 ص 266)

و تبلت المرأة فؤاد الرجل تبلا كأنما أصابته بتبل قال أيوب بن عباية أجد بأم البنين الرحيل فقلبك صب إليها تبيل و التبل أن يسقم الهوى الإنسان رجل متبول قال الأعشى أأن رأت رجلا أعشى أضر به ريب المنون ودهر متبل خبل ويروى ودهر خابل تبل أي مسقم وفي الصحاح أي يذهب بالأهل والولد وأصل التبل الترة والذحل يقال تبلي عند فلان ويقال أصيب بتبل وقد أتبله إتبالا وفي قصيد كعب بن زهير بانت سعاد فقلبي اليوم متبول أي مصاب بتبل وهو الذحل والعداوة يقال قلب متبول إذا غلبه الحب وهيمه و تبله الحب يتبله و أتبله أسقمه وأفسده وقيل تبله تبلا ذهب بعقله
(لسان العرب ج 11 ص 76)

قال ابن القيم رحمه الله:
(فصل ذكر قصة كعب بن زهير مع النبي
وكانت فيما بين رجوعه من الطائف وغزوة تبوك قال ابن إسحاق ولما قدم رسول الله من الطائف كتب بجير بن زهير إلى أخيه كعب يخبره أن رسول الله قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه وأن من بقي من شعراء قريش ابن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب قد هربوا في كل وجه فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا مسلما وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك وكان كعب قد قال
ألا أبلغا عني بجيرا رسالة فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا
فبين لنا إن كنا لست بفاعل على أي شيء غير ذلك دلكا
على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه ولم تدرك عليه أخا لكا
فإن أنت لم تفعل فلست بآسف ولا قائل إما عثرت لعالكا
سقاك بها المأمون كأسا روية فأنهلك المأمون منها وعلكا

قال وبعث بها إلى بجير فلما أتت بجيرا كره أن يكتمها رسول الله فأنشده إياها فقال رسول الله سقاك المأمون صدق وإنه لكذوب أنا المأمون ولما سمع على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه فقال أجل قال لم يلف عليه أباه ولا أمه ثم قال بجير لكعب

من مبلغ كعبا فهل لك في التي تلوم عليها باطلا وهي أحزم
إلى الله لا العزى ولا اللات وحده فتنجوا إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من الناس إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهير وهو لا شيء دينه ودين أبي سلمى على محرم

فلما بلغ كعبا الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه وأرجف به من كان في حاضره من عدوه فقال هو مقتول

فلما لم يجد من شيء بدا قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله وذكر خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة كما ذكر لي فغدا به إلى رسول الله حين صلى الصبح فصلى مع رسول الله ثم أشار إلى رسول الله فقال هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه فذكر لي أنه قام إلى رسول الله حتى جلس إليه فوضع يده في يده وكان رسول الله لا يعرفه فقال يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائبا مسلما فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به قال رسول الله نعم قال أنا يا رسول الله كعب بن زهير قال ابن إسحاق فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه وثب عليه رجل من الأنصار فقال يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه فقال رسول الله دعه عنك فقد جاء تائبا نازعا عما كان عليه قال فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبهم وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير فقال قصيدته اللامية التي يصف فيها محبوبته وناقته التي أولها

بانت سعاد فقلبي اليوك متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
يسعى الغواة جنابيها وقولهم إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول
وقال كل صديق كنت آمله لا ألهينك إني عنك مشغول
فقلت خلوا طريقي لا أبالكم فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول
نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت في الأوقايل
لقد أقوم مقاما لو يقوم به أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لظل ترعد من خوف بوادره إن لم يكن من رسول الله تنويل
حتى وضعت يميني ما أنازعها في كف ذي نقمات قوله القيل
فلهو أخوف عندي إذ أكمله وقيل إنك منسوب ومسؤول
من ضيغم بضراء الأرض مخدره في بطن عثر غيل دونه غيل
يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما لحم من الناس معفور خراديل
إذا يساور قرنا لا يحل له أن يترك القرن إلا وهو مفلول
منه تظل سباع الجو نافرة ولا تمشى بواديه الأراجيل
ولا يزال بواديه أخو ثقة مضرج البز والدرسان مأكول
إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل
يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل
شم العرانين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سرابيل
بيض سوابغ قد شكت لها حلق كأنها حلق القفعاء مجدول
ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل

قال ابن إسحاق قال عاصم بن عمر بن قتادة فلما قال كعب إذا عرد السود التنايل وإنما عنى به ما صنع وخص المهاجرين بمدحته غضبت عليه الأنصار فقال بعد أن أسلم يمدح الأنصار في قصيدته التي يقول فيها من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب من صالحي الأنصار

ورثوا المكارم كابرا عن كابر إن الخيار هم بنو الأخيار

الباذلين نفوسهم لنبيهم يوم الهياج وسطوة الجبار
والذائدين الناس عن أديانهم بالمشرفي وبالقنا الخطار
والبائعين نفوسهم لنبيهم للموت يوم تعانق وكرار
يتطهرون يرونه نسكا لهم بدماء من علقوا من الكفار
وإذا حللت ليمنعوك إليهم أصبحت عند معاقل الأعفار
قوم إذا خوت النجوم فإنهم للطارقين النازلين مقاري
وكعب بن زهير من فحول الشعراء هو وأبوه وابنه عقبة وابن ابنه العوام بن عقبة ومما يستحسن لكعب قوله لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعي الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها فالنفس واحدة والهم منتشر
والمرء ما عاش ممدود له أمل لا تنتهي العين حتى ينتهي الأثر
ومما يستحسن له أيضا قوله في النبي
تحدى به الناقة الأدماء معتجرا للبرد كالبدر جلي ليلة الظلم
ففي عطافيه أو أثناء بردته ما يعلم الله من دين ومن كرم
(زاد المعاد ج 3 ص 520- 526)